المحاضرة التاسعة: مناهج تحليل الحكاية الخرافية (التحليل الوظائفي لبروب)

تشكل محاولة فلادمير بروب خطوة جادة في مراجعة معيار تصنيف الحكاية الشعبية، وبالخصوص معيار تصنيف الحكاية الخرافية ضمن جملة القصص الشعبي؛ حيث استطاع بعد خبرة طويلة في مجال اشتغاله أن يستنبط العناصر السردية الصغرى المكونة للبنية الشكلية للحكاية الخرافية.

وركوحا إلى هذا المنطلق رأى أنّه "يجب أن يُعاد النظر في تصنيف القصص من أساسه. وهكذا يجب أن يعبّر التصنيف عن نظامٍ من العلامات الشكلانية البنيوية كما هي الحال في العلوم الأخرى"[(4)]، ولذلك أعاب بروب على الدارسين انطلاقهم في التصنيف من خارج البنية؛ أي بالاعتماد على منطلقات إنشاء القصص النفسية والاجتماعية والأخلاقية... أو الاعتماد على وظائف القصص، فذلك صنيع غير مجدٍ أو غير دقيق النتائج، إنّ "أغلب الباحثين يبدؤون بالتصنيف فيقحمونه من الخارج على الجُسمان، في حين كان ينبغي عليهم أن يستنتجوه منه استنتاجا"[(5)] ولذلك كان من الطبعي أن يحيد هؤلاء عن معيار التصنيف الذي اختطوه بدءا، وذلك بسبب التداخل الشديد بين الأنواع القصصية.

لقد اكتست محاولة فلادمير بروب في تحليل القصة أهمية بالغة، ذلك لأنّ التحليل الوظائفي يُعد الركيزة الصلبة التي اتكأ عليها كثير من الدارسين اللاحقين في أبحاثهم ونظرياتهم النقدية فشكّل هذا التحليل إرهاصًا لنظرية مهمة في الدراسات الأدبية المعاصرة ألا وهي "نظرية السرد"، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لفت الانتباه إلى معيار تصنيفي جديد للحكاية الخرافية على الأقل، يستند إلى الوحدات الوظيفية أساسا.

انطلق بروب في كتابه "مورفولوجية الحكاية الخرافية" من معطيات داخل نصيّة أي من بنية تلك القصص، وللتفصيل أكثر في التحليل الوظائفي، نحاول الوقوف عند خطواته الإجرائية وأهم القضايا التي شكّلت النموذج البروبي:

1- عزل الثوابت عن المتغيرات:

يَفترض بروب في كتابه "مورفولوجية الحكاية الخرافية" أنّ كلّ قصة تشتمل على عناصر ثابتة وأخرى متغيرة؛ هذه العناصر الثابتة ليست كما حدّدها (فسلوفسكي) أي ليست حوافز (موتيفات)[*] وإنّما هي عناصر أبسط، لأنّ تلك الحوافز قابلة للتجزئة، ويضرب لنا بروب الأمثلة الآتية[6]:

1- الملك يعطي أحد الشجعان نسرا. يحمل النسرُ الشجاعَ إلى مملكة أخرى.
2- الجدّ يعطي سوتشينكو حصانًا. يحمل الحصانُ سوتشينكو إلى مملكة أخرى.
3- أحد السحرة يعطي إيفان زورقًا. يحمل الزورقُ إيفان إلى مملكة أخرى.
4- الملكة تعطي إيفان خاتمًا. يخرج من الخاتم رجال أشداء يحملون إيفان إلى مملكة أخرى.

يرى بروب أنّ الحالات المعروضة تشتمل على قيم ثابتة وأخرى متغيرة، فالمتغيرات هي أسماء الشخصيات وصفاتها في الوقت عينه (طويل، قصير/ شجاع، جبان/ ذكرن أنثى/ قوي، ضعيف...) وما لا يتغير هو أفعالها Actions أو وظائفها Fonctions. ويستخلص من ذلك أنّه غالبًا ما تسند القصة الأفعال نفسها إلى شخصيات مختلفة. وهذا ما يسمح بدراسة القصص انطلاقا من وظائف الشخصيات[7].

وللتأكيد على أنّ أبسط وحدة من وحدات المقصوص هي "الوظيفة" يقوم بروب بِفكّ الحافز/ الحَرِك الآتي إلى وحدات أبسط: «التنين يختطف ابنة الملك» فيرى أنّه يتجزّأ إلى أربعة عناصر، كلّ منها يستطيع أن يتغير على انفراد وتحلّ محلّه عناصر أخرى على النحو الآتي:

التنين ← كوشتشي أو الريح أو الشيطان...

الاختطاف ← مختلف الأفعال التي ينجم عنها الضياع...

الابنة ← الأخت، الخطيبة، الزوجة، الأم...

الملك ← ابنه، الفلاح، القس...

بيد أنّ ما يؤاخذ عليه بروب، هو عدم تحديده لهذه العناصر أو الأجزاء الصغرى "ففضلاً عن عدم تسميتها، فإنّه ليس لها وجود منطقي مستقل"[8] داخل الحرك ذاته لذلك – حسب رأينا – الوظيفة عند بروبهي وجه آخر للحافز أو الحرك عند (فسلوفسكي) فالحافز الآتي مثلاً «التنين المعتدي يختطف ابنة الملك» هو عبارة عن وظيفة، هذه الوظيفة تسمى «اختطاف» والدليل على ذلك هو تعريف بروب نفسه للوظيفة بقوله: "ونعني بالوظيفة ما تقوم به الشخصيّة من فعل محدّد، من منظور دلالته في سير الحبكة"[9] أي ضمن مسار أحداث القصة، وهذه الشروط متوافرة في الحافز

السابق، إذا افترضنا أنّ ذلك الحافز هو عنصر من عناصر قصة ما ذات حبكة متسقة، فكل وظيفة إذن تشتمل على مسند ومسند إليه، كما أنّ كلّ حافز يشتمل أيضًا على مسند ومسند إليه، حيث إنّ المسند هنا هو "الاختطاف" والمسند إليه هو "المعتدي".

2 – الوظائف:

تُعد دراسة فلادمير بروب دراسة شكلية هيكلية بحتة، وهذا ما يُحيل عليه عنوان مؤّلفه "مورفولوجية الحكاية الخرافية" أي دراسة شكل الحكاية، وقد حاول بروب استنباط البنية الهيكلية المشتركة لنوع قصصي هو "الحكاية الخرافية أو العجيبة" وذلك بالاعتماد على مائة حكاية خرافية روسية، ولكن قبل ذلك حاول تحديد أبسط عنصر يمكن الانطلاق منه، فلاحظ أنّه يتمثل في "الوظيفة" كما سبق الإشارة إلى تعريفها.

قبل شروع بروب في تبيان وظائف القصة، قدم صياغة فرضية تلخّص النتائج التي تطمح دراسته الوصول إليها وهي:[10]

1- إنّ العناصر الثابتة الدائمة في القصة هي وظائف الشخصيات أيًّا كانت هذه الشخصيات وأيًّا كانت الطريقة التي تؤدي بها، فالوظائف هي الأجزاء المكونة الأساسية للقصة.
2- إنّ عدد الوظائف الذي تحتوي عليه القصة العجيبة محدود.
3- إنّ تتالي الوظائف هو نفسه على الدوام.
4- كل القصص العجيب ينتمي من حيث بنيته إلى نفس النمط.

عادة ما تفتتح القصص بوضعية افتتاحية أو حالة بدئية موسومة بالاستقرار – أو على الأقل استقرار نسبي – تعرض للمكان الرئيس الذي يسكنه البطل أو غيره من شخصيات القصة، كما تُقدِّم وصفًا أو تعريفًا بالبطل، وبعدها مباشرة يتم عرض حالة الافتقار التي تؤدي إلى سلسلة من الاضطرابات والتحولات والحلول؛ هذه السلسلة تمثل متن القصة أو ما يسميه دارسو السرد بالوسط أو الوساطة "التي تتحقق في كلّ قصة أو في كل مجموعة من الوظائف، والتي تسمح بالانتقال من الوضعية الافتتاحية إلى الوضعية الختامية للقصة"[11] والموسومة بالاستقرار مثل الحالة البدئية، وقد أحصى بروب إحدى وثلاثين وظيفة تشكل الهيكل العام للحكاية الخرافية، والتي تكون – كما أشرنا – بعد الوضعية الافتتاحية، وتتمثل تلك الوظائف في:[12]

1- الابتعاد (النأي/ الرحيل): يغادر أحد أفراد العائلة منزله، وقد تكون المغادرة إمّا طوعيّة كالخروج إلى الغابة أو التجارة أو الحرب... وقد تكون المغادرة قسرية كأن يتوفى أحد الوالدين أو كلاهما.

2- الحظر: يمنع البطل من القيام بشيء ما ويتم تحذيره.

3- خرق الحظر: يتم تجاوز الوظيفة السابقة (الحظر).

4- الاستخبار: يسعى المعتدي للحصول على معلومات أو إرشادات تمكنه من الوصول إلى مبتغاه.

5- الإخبار: يتمكن المعتدي من تلقي معلومات عن ضحيته.

6- الخداع: يحاول المعتدي خداع ضحيته وإخضاعها بغرض الاستحواذ عليها أو الاستلاء على ممتلكاتها.

7- التواطؤ: ترضخ الضحية لخدعة المعتدي، فتساعده وتتواطأ معه وتتقبل أقواله.

8- الإساءة: يُلحق المعتدي الضرر بأحد أفراد الأسرة، وهذا الضرر يكون متنوع الأشكال، فقد يكون اختطافا أو سرقة أو إتلافًا لأغراض الضحية.

ويرى بروب أنّ هذه الوظيفة غاية في الأهمية، لأنّها تمنح القصة حركيتها. ولهذا يمكن عدّ الوظائف السبع السابقة توطئة لأحداث القصة التي تتعقّد انطلاقًا من حدوث الإساءة.

8- أ- الحاجة (الافتقار): يفتقد أحد أفراد الأسرة لشيء ما ويرغب في اقتنائه. نلاحظ أنّ هذه الوظيفة قد رمز إليها بـ "أ" لأنّ القصص لا تبدأ دائمًا بالإساءة (الوظيفة 8) وإنّما قد تنطلق من حالة العوز والافتقار التي تعقبها حالة البحث المماثلة لحالة البحث التي تعقب الإساءة.

9- الوساطة (لحظة التحوّل): ينتشر خبر الإساءة أو الحاجة، فيتم التوجه إلى البطل بأمر أو طلب ويسمح له بالذهاب، وهنا تبدأ مهمة البطل وتُسلط الأضواء عليه، والبطل حسب بروب نوعان بطل باحث (ملحمي) وبطل ضحية[13].

10- بداية الفعل المعاكس: يوافق البطل الباحث على التحرك أو المغادرة والقيام بمهمة البحث.

11- الرحيل: يغادر البطل مسكنه.

12- أولى وظائف المانح: يُستنطق البطل ويخضع للاختبار والاستجواب أو حتى الهجوم، وهذا ما يعِدّه ويهيئوه لتلقي أداة سحرية.

13- ردة فعل البطل: يردّ البطل على أفعال الواهب سواء بالإيحاء وبالسلب.

14- استلام الأداة السحرية: توضع الأداة السحرية تحت تصرف البطل، وقد تكون تلك الأداة حيوانًا أو أشياء ذات خواص سحريّة كالخاتم والعصا أو يتلقى القوة الجسدية مباشرة.

15- التنقل في المكان بين مملكتين: (سفر بصحبة دليل**):** ينقل أو يقاد أو يصطحب إلى المكان الذي توجد فيه ضالته.

16- الصراع (المعركة): يتعارك البطل مع المعتدي.

17- العلامة (السمة): يوسم البطل بعلامة خاصة.

18- الانتصار: يحقق البطل نصرًا على المعتدي.

19- إصلاح الإساءة: يعوض البطل النقص، ويسد حاجته، وتمثل هذه الوظيفة مع الوظيفة الثامنة زوجًا وظيفيًا.

20- العودة: يعود البطل إلى مكان إقامته.

21- المطاردة: يُطارد البطل من أجل الانتقام منه.

22- النجدة: يُغاث البطل وينجو من مطارديه.

23- الوصول متنكرًا: يصل البطل متنكرًا إلى منزله أو مكان آخر يجاوره.

24- دعاوى باطلة: يظهر بطل مزيف، ويدعي لنفسه مزاعم كاذبة.

25- مهمة صعبة: تقترح على البطل مهمة صعبة، وهذه الوظيفة تضفي على القصة عنصر التشويق.

26- مهمة منجزة: يقوم البطل بإنجاز المهمة على أكمل وجه.

27- التعرف: يتم التعرف على البطل من خلال علامة كان قد وُسِمَ بها أو من خلال الأداة السحرية التي يمتلكها.

28- الاكتشاف: ينكشف أمر البطل المزيف أو المعتدي الشرير.

29- التجلي (تغيّر الهيئة): يكتسب البطل مظهرًا جديدًا.

30- العقاب: يعاقب البطل المزيف أو المعتدي بعدما انكشف أمره وظهر البطل الحقيقي.

31- الزواج: يتزوج البطل ويرتقي سدّة العرش.

وبمكافأة البطل تُعرض الوضعية الختامية المستقرة ثم تختم القصة، وبهذا يصل بروب إلى جملة من النتائج العامة والخاصة يلخّصها فيما يلي:

أ- نتائج عامة:[14]

- ✓ في وسعنا أن نتبين حقًا أنّ عدد الوظائف محدود جدًا، فلا يمكن عزل أكثر من إحدى وثلاثين وظيفة.
- ✓ إنّ كافة القصص المدروسة وحتى القصص التي تنتمي إلى الأمم الأكثر تنوعًا ومن نفس النوع القصصي (العجيبة أو الخرافية) تجري في إطار هذه الوظائف.
- ✓ إنّنا إذ نقرأ كافة الوظائف بالتتالي نتبين الضرورة المنطقية والجمالية التي تعيد كل وظيفة إلى الوظيفة التي تسبقها.
- ✓ ما من وظيفة تنفي الأخرى، فكل الوظائف تنتمي إلى محور واحد، لا محاور عدّة.

ب- نتائج خاصة:[15]

- ✓ إنّ الكثير من الوظائف تلتقي في أزواج كـ(الحظر والتجاوز) (الاستخبار والإخبار) و(المعركة والانتصار) و(المطاردة والنجدة)...
- ✓ يمكن لوظائف أخرى أن تلتقي في مجموعات، فالإساءة وإرسال البطل وطلب النجدة وقرار إصلاح الإساءة والرحيل... كلّها تشكل عقدة الحبكة، وأمّا اختبار المانح للبطل، وردّ فعل هذا الأخير ومكافأته تشكل بدورها مجموعة معينة.

من هنا نلاحظ أنّ بروب قد "قام بربط الظاهر الوظائفي (أي الوظائف حسب ورودها في الخطاب القصصي) بمستوى خفي اعتبره البنية الضمنية لكلّ الحكايات الشعبية، ومن ميزات هذه البنية الخفية شكلها البسيط وعناصرها القارة والمحدودة العدد"[16]، وهذا ما شكّل قاعدة صلبة لتصنيف الحكاية الخرافية من هذا المنطلق.

3- دوائر الفعل:

على الرغم من أنّ بروب ركز جهده في دراسته المورفولوجية على الوظائف في حدّ ذاتها، إلاّ أنّه يرى من الضروري تفحّص مسألة مهمة، وهي كيف تتوزع الوظائف بين الشخصيات؟ ويرى بعد ذلك أنّ عديد الوظائف يتجمّع منطقيًا ضمن حقول عمل أو دوائر فعل هي:[17]

1- **دائرة فعل المعتدي (الشرير):** وتضم وظيفة الإساءة والمعركة وأنواع الصراع الأخرى والمطاردة.

2- **دائرة فعل المانح (الواهب):** وتحتوي على إخضاع البطل للتجربة أو الاختبار، ثم وضع الأداة السحرية بتصرف البطل.

3- **دائرة فعل المساعد:** وتضمّ مساعدة البطل على التنقل وإصلاح الإساءة أو سدّ الحاجة، كذلك إغاثة البطل أثناء المطاردة، وتنفيذ المهمات الصعبة، وتجلية البطل.

4- **دائرة فعل الأميرة** وأبيها: وتحتوي هذه الدائرة على التكليف بمهمات صعبة، والوسم بعلامة وكشف البطل المزيف، وهذا يقتضي طبعًا التعرف على البطل الحقيقي، بالإضافة إلى معاقبة المزيّف ومكافأة البطل الحقيقي عن طريق تزويجه.

5- **دائرة فعل الآمر (الطالب):** وتقتصر هذه الدائرة على إرسال البطل لا غير.

6- **دائرة فعل البطل:** وتحتوي على خروج البطل في مهمة البحث، وردّ فعله على مطالب الواهب، بالإضافة إلى زواجه بالأميرة.

7- **دائرة فعل البطل المزيف:** وتحتوي بدورها على الخروج في مهمة البحث، غير أنّ ردة فعل البطل المزيف سلبية دومًا تجاه مطالب المانح، ناهيك عن المزاعم والادعاءات الباطلة.

فالوظائف إذن توزع في القصة على الشخوص السبعة السابقة، بينما هناك شخصيات ثانوية يتمثل دورها في الربط كالوشاة والشكّائين والنمامين.

إذا كان بروب قد أولى اهتمامًا بالغًا بالوحدات الصغرى المشكلة للقصة، فإنّ نظرته الشمولية للقصة "تتجاوز الوظائف أحيانًا، وتتعامل مع الحكاية كوحدة كلية(...) كتطوّر ينطلق أساسًا من الإساءة أو من الشعور بالنقص، إلى الزواج، أو أي وظيفة تعمل على حلّ العقدة مرورًا بالوظائف الأخرى التي تتوسط بين هاتين الوظيفتين، وهذا التطوّر يطلق عليه بروب مصطلح متتالية"[18] أو متوالية Séquence فكل متوالية تضمّ مجموعة من الوظائف، لكونها "تمثل أحد مكونات مسار متنام، وتمثل المتوالية أصغر حلقة مكتملة وممثلة للقصة، إنّها تحققات منطقية لقصة صغرى تمثل تتابع اللحظات: الماقبل/ الأثناء/ المابعد"[19]، وقد استثمر كلود بريمون هذه المتواليات في إقامة مقترحه الذي ينطلق من الوحدات الوظيفية إلى المتواليات البسيطة فالمركّبة.

وعموما استطاع فلادمير بروب حصر الوحدات الوظائفية المشكّلة للبنية الهيكلية للحكاية الخرافية الروسية، (تحديدا المائة حكاية التي طبق عليها دراسته) وقد أظهرت كفاءة عالية في ضبط **معيار تصنيف** الحكاية الخرافية، غير أنها قد لا تنسحب على كافة الحكاية الخرافية في العالم، أو على الأقل قد تختلف الوحدات الوظائفية من حيث الطبيعة والترتيب والعدد، وهذا ما يُرجئ مسألة الحسم في التصنيف.